جماليات العاطفة الشعرية في حجازيات الشريف الرضي

أ.د. حكمت إبراهيم عيسى* د. مصطفى نمر** مهاب كامل خضور***

الملخّص

يتناول البحث جماليات العاطفة في حجازيات الشريف الرضي، فالعاطفة هي روح النص الأدبي، وهي في القصيدة كالماء الساري في العود الأخضر، فإذا جفَّ هذا الماء ذبل هذا العود، وأصبح هشيماً لا قيمة له، كذلك العاطفة في الشعر، إذ لا قيمة البتة لشعر لا يعبأ بالشعور والعاطفة.

والشريف الرضي شاعر بارع في الإفصاح عن فكره، والتعبير عن عواطفه، وترجمة حالته النفسية، وفي تطويع صوره الشعرية ولغته بما فيها من ألفاظ ومعانٍ وأساليب خدمةً لعاطفته، هذه العاطفة التي غلب عليها شعور الشوق والحنين؛ شوق للمحبوبة، شوق للعراق، شوق لديارات الحجاز، شوق للخلافة الإسلامية.

إذاً سنقف في هذا البحث أمام شاعر مجيد، واسع الخيال، ذي عاطفة جياشة، صادق الإحساس، عفيف الغزل.

كلمات مفتاحية: الحجازيات، الشريف الرضي، العاطفة، الشوق، الخيال.

* أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية – سورية.

** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية – سورية.

*** طالب دكتوراه (الدراسات الأدبية) قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية – سورية. Email: Khaddour89 gmail@. Com

The aesthetics of poetic emotion in the Hijazis of Sharif Al-Radi

D.Hekmat Ibraheem Issa* D. Mostafa Nimer**
Mohab Kameel Khadour***

Abstract

This research deals with the aesthetic of AL-Radi's Emotion in AL-Sharif AL-Radi Hejazis.

Emotion is the soulof the literary text. In poems it's like running water in a green brunch. When this water dried, the brunch will be died, soon it will be as an ash without sense, without emotions poetry will lose its sense and meaning.

AL-Sharif AL-Radi is a clever poet because he can express his ideas and his emotions he also can translate his psycological mood more over. He makes large benefit from his personification and his language, such as words, meanings, and methods to serve his emotion. This emotion which over whined by the longing and homesick feelings, also longing for the beloved longing for his homeland Irag, longing for his home ALHijaz, longing for Islamic Caliphate.

So, in this research we will stand for an honorable poet. Who has wide imagination and an honest feeling. Who has also an honest flirtation.

Key words: AL-Hijazis, AL-Sharif AL-Radi ,Emotion, longing, imagination.

* Professor- Arabic Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria.

** Professor- Arabic Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria .

*** M.KH. Student PH. D (Literary Studies) – Arabic Department- Faculty of Arts and Humanities- Tishreen University- Lattakia- Syria.

مقدمة:

تعد العاطفة أحد أهم ركائز البناء الفني، ولها دور مهم في نجاح العمل الأدبي، وهي وسيلة فعالة، يستطيع الشاعر أن يبلغ غايته بوساطتها؛ ولهذا فقد أبدى النقاد القدماء والدارسون آراءهم حول العاطفة وما يدور في فلكها، واعتنوا بها أيما اعتناء. يقول ابن قتيبة: "للشعر دواعٍ تحثّ البطيء، وتبعث المتكلف، منها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب".[1]

وشاعرنا الشريف الرضي شاعر ذو عاطفة رقيقة، كان لنفسه الأبية الطامحة، ولمجريات حياته السياسية والدينية، عظيم الدور في توجيه عواطفه ومشاعره في حجازياته نحو الشوق والحنين والحب؛ لأهل تركهم في العراق، أو حجيج سيلقاهم في الحجاز، أو لخلافة إسلامية يشعر أنه أحق الناس بها؛ لذا سنسعى جاهدين لنرسم صورة واضحة لعاطفته الصادقة المنثورة في قصائده الحجازية.

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية هذا البحث من كونه واحداً من البحوث التي تعنى بدراسة جماليات العاطفة في حجازيات الشريف الرضي، فقصائده الحجازية هي بيئة خصبة للمشاعر والعواطف الصادقة التي نضحت بها نفسه العفيفة الطامحة، عاطفة نابعة من قلبٍ رقيقٍ مخلصٍ؛ لذا حقّ الغوص في حجازياته؛ للكشف عن ماهية عواطفه الجياشة الصادقة، ومعرفة إلى أي مدى قد وفّق الشريف الرضي في ترجمة مشاعره الداخلية، والتأثير في المتلقي للوقوف على منابع الجمال فيها.

منهجية البحث:

سيحاول البحث قراءة نصوص الشريف الرضي الحجازية قراءة جمالية، وذلك بالغوص في أعماق هذه النصوص ، محاولين استنطاقها، والوقوف على دقائق تشكل الظاهرة الجمالية لعاطفته المبثوثة فيها. وعليه فإنّ طبيعة البحث تملي علينا الاعتماد

[1] الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ت 276هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1377هـ - 1958م، ص78.

على المنهج الجمالي الذي ينطلق من داخل النص الأدبي؛ لدراسة ظواهره الجمالية وتحليلها، فهو منهج يتيح لنا التحرّك بين الأسباب والنتائج.

مناقشة:

أولاً: مفهومات نظرية:

1- **الجمالية:** هي "ترجمة لكلمة (استطيقيا)، وهي كلمة ولدت في رحم الفلسفة الغربية من الناحية الاصطلاحية خلال القرن الثامن عشر الميلادي على يد بومجارتن، ويقصد بها علماً خاصاً بالمعرفة الحسية"[1]

فهي علمٌ يبحث في معنى الجمال من حيث مفهومه وماهيته ومقاييسه، والجمالية قديمة قدم الإنسان نفسه، وقد اتخذت لها طابعاً خاصاً مع كلِّ حضارة من الحضارات المتعاقبة، لأنها صاحبة الحضارات البشرية كلّها من دون استثناء.

2- **الحجازيات:** هي "موضوع شعري وجداني ابتدعه الشريف الرضي، ذو طابعٍ غزلي عفيف، تدور أحداثه من حيث المكان في بيئة الحجاز، ومن حيث الزمان فقد تقال في موسم الحج وغيره، وهذا الموضوع هو ضربٌ من ضروب الغزل ينسب إلى الحجاز، وهذه النسبة المكانية يراد فيها في الشعر عند العرب نسبة فنيّة ذات طابع روحي أيضاً".[2]

3- **الشريف الرضي:** هو "محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مولده ببغداد سنة تسع وخمسين وثلاثمئة".[3]

"والده كان يعرف بأبي أحمد الطاهر، وأمّه هي فاطمة بنت الناصر الصغير الحسن بن أحمد، التي يرتفع نسبها أيضاً إلى زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب".[4]

---

[1] الأسس الجمالية في النقد العربي، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1974م، ص15.

[2] شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية، عبد اللطيف عمران، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000م، ص226.

[3] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العربية، بيروت . لبنان، ط1، 1412هـ . 1992م، ج115/15.

[4] أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت، 1959م، ج44/ 174.

لقد تتلمذ الشريف الرضي على يد أفضل وألمع الأساتذة في عصره، حتى غدا شخصيّةً مميّزةً علمياً وفكرياً وأدبياً وأخلاقياً، أضف إلى ذلك أنّه عاصر في الفترة التي عاشها العديد من الخلفاء والملوك، وكثيراً ما تطلّع للوصول إلى سدّة الخلافة.

"لقد أقبل الموت على الشريف الرضي وهو في أوج شبابه، وأوج عطائه الأدبي، فتوفيّ يوم الاحد 6 محرّم، 406هـ، 26 حزيران، 1016م".[1]

4- العاطفة: اهتمّ نقادنا القدماء بالعاطفة، لكنّهم لم يذكروا اسمها كما استقرّ عند المحدثين، إنما أشاروا إلى أسبابها ودوافعها، أما عند المحدثين فقد تعددت آراءهم وتعريفاتهم، إلا أن أغلبها يلتقي حول فكرة: إنّ العاطفة هي: "الانفعال بالتجربة الشعورية حباً أو بغضاً، تفاؤلاً أو تشاؤماً، وتتجلى للدارس من خلال دراسة النص إن كانت هذه العاطفة صادقة أو زائفة، عميقة أو سطحية، قوية أو ضعيفة، مستمرة في النص كله أو فقدت استمراريتها"[2]. والعاطفة عند الدكتور عبد المنعم خفاجي هي: " الحالة التي تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلى التعبير عن مشاعره، والإعراب عما يجول بخلده"[3].

ثانياً: عاطفة الرضي في حجازياته:

1- دور العاطفة في العمل الأدبي:

الإنسان هو كتلة مجبولة بالعواطف والأحاسيس والفِكَر، وما التنوع والتبدل العاطفي الذي ينبثق من هذا الكون إلا انعكاس لتصرفات الزمان والمكان. والعاطفة الشعرية هي روح النص الأدبي، ولها دور بارز في نجاح أي عمل أدبي. ولقد عرف نقادنا القدامى منزلة العاطفة بوصفها باعثاً على العملية الشعرية، ودافعاً قوياً إليها،

[1] المنتظم، ابن الجوزي، ج282/15.

[2] التحرير الأدبي، د. حسين علي محمد حسين، مكتبة العبيكان، ط5، 1425هـ - 2004م، ص385.

[3] مدارس النقد الأدبي الحديث، د. محمد عبد المنعم خفاجي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1416هـ - 1995م، ص43-44.

وسجلوا ملاحظات الشعراء في شأن إحساساتهم التي تغمرهم قبل العملية الشعرية، وتحفزهم إليها، فالشعراء تحت وطأة الإحساس كأنهم يعانون من عبءٍ ثقيلٍ، لا يتخلصون منه إلا بمباشرة النظم، والمضي فيه.

والعاطفة مكون أساس من مكونات جماليات مضامين الإبداع الأدبي. فالإبداع الأدبي " يعتمد أساساً على العاطفة، على تلك الرعشة التي تنتج عن الاحتكاك بموضوع ما، أو فكرة ما، أو هدف ما، فتملأ هذه العاطفة جميع جوانب شخصية الفنان، وتقلق راحته، وتدفعه إلى الفعل، وإلى التعبير عما يجول في نفسه، ويعتمر في وجدانه، ويفرّغ هذه العاطفة وهذا الوجدان في صور فنية رائعة"[1].

ويجعل ابن رشيق القيرواني الانفعالات سبباً لتحديد الأغراض، وقواعد الشعر عنده أربع، هي:

" الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومن الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب"[2].

2- أهم العوامل الموقظة لعاطفة الرضي في حجازياته:

إنّ شعر الرضي متنفّسٌ يخفف عنه وطأة مشاعره التي تجثو كالجبل فوق صدره، هذه المشاعر والعواطف كان لطبيعة الرضي النفسية، وللتجارب القاسية التي مرّ بها عظيم الدور في دفعها إلى معترك الحياة. "إنّ معرفة أخلاق الشاعر وطباعه تسهم إسهاماً كبيراً في كشف حقيقة العوامل التي تتدافع وتتوالد وراء ما يسفر وينجلي في معانٍ واضحة في القصيدة، فالطبع هو الذي يؤدي إلى التنازع مع المؤثرات الخارجية"[3].

---

[1] العاطفة والإبداع الشعري، د. عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سورية، 2002م، ص67.

[2] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني ت463هـ، قدّم له وشرحه: صلاح الدين الهواري، وهدى عودة، منشورات دار ومكبة الهلال، بيروت، 1417هـ - 1996م، ج1/210.

[3] نماذج في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1969م، ص55.

إنّ حجازيات الشريف الرضي لا تتميز بصدق وسمو عاطفة الشاعر فيها فحسب، بل تدوم باشتغال الفكر والتأمل فيها، "فالعاطفة تقف إزاء العقل، وتمتزج بألوان الفكر فيه، وتقوم المشاعر أيضاً بتعميق الأفكار وإثرائها"[1]. فإذا ما هاجت عاطفة الشريف الرضي يكون العقل هو المهذّب والموجه لها من العبث والطيش الذي قد يغلب على العاطفة، فتصيب المرء بما لا يحمد عاقبته. ومن يقرأ حجازيات الشريف الرضي يجد نفسه إزاء شاعر تغذّى بالوجدانية والرّقة، شاعر يبثّ ما في قلبه من أحاسيس حتى كأنّه يطارحنا قضاياه، فيجعلنا نتبع خطاه، شاعرٌ بحث عن حبّه بكلّ طهارة وعفّة، وأخلص له، فصار الحبّ عنده فضيلةً، وراحت عواطفه ومشاعره تتدفق من نفسه المحبّة السمحة.

أ- الذكرى:

تعدّ الذكرى من أهم العوامل التي أدّت دوراً واضحاً في تفتيق عواطف الرضي في حجازياته، فعندما يبلغ الشوق بالشريف الرضي مبلغاً عظيماً، ولم يعد في الحشا مكان خالٍ، ليس لشاعرنا إلا الذكرى سبيلاً لمحاكاته الاشتياق، فيعيد شريط ذكرياته، وهذه حال كل العشاق الكبار الذين درجوا على الاشتياق، ولم ترتوِ قلوبهم باللقاء، " وقد كانت حياة الشريف الرضي زاخرةً بالاشتياق، ولربما زخر الاشتياق نفسه بروح الشريف الرضي التي ساحت في فضاءات الطبيعة، مع الطيور في شدوها ونوحها، مع النجوم ومع المياه، فصارت للمحبوب قداسة الذكرى، وهو في هجره لم يسعف الشاعر الشريف الرضي بغير الوجد والاحتراق والدموع التي لا تطفئ أي نارٍ، وكأنّ روحه وجسده أصبحا سمتين لأقاليم الروح والجسد في شخص الشاعر على هواهما، فحقّ أن يتفجّع"[2]. فيقول[3]:

يـا طـائر البـان غريـداً علـى فـنن ما هاج نوحك لي يا طائر البان

هل أنت مبلغ من هام الفؤاد به إنّ الطليـق يـؤدي حاجـة العـاني

[1] البحث الأدبي بين النظر والتطبيق، علي علي مصطفى صبح، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، ص18.

[2] الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيّد جاسم، دار الأندلس، بيروت – لبنان، د.ت، ص126.

[3] ديوان الشريف الرضي، شرحه وعلّق عليه وقدّم له: الدكتور محمود مصطفى حلاوة، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1،1419هـ – 1999م، ج2/405–406.

ضمانة ما جناها غير مقلته يوم الوداع فيا شوقي إلى الجاني

هيهات ما أنت من وجدي ولا طربي ولا لقبلـــك أشـــجاني وأحزانـــي

لـــولا تـــذكُّرُ أيـــامي بـــذي ســـلمٍ وعنـــد رامـــة أوطـــاري وأوطـــاني

لما قدحت بنار الوجد في كبدي ولا بللـــت بمـــاء الـــدمع أجفـــاني

يقرُّ الرضـي فـي بيتيـه الأخيـرين مـن مقطوعتـه الشـعرية السـابقة بذكرياتـه مـع محبوبته في منطقة ذي سلم، هذه الذكريات التي أشعلت نفسه بنار الوجد والشوق المبلل بدموع الحرقة والألم، ويظهر أنّ علاقته بهذه المحبوبة، وحاجته إليها قد بلغا من نفسه كلّ مبلغ، فجادت قريحته الشعرية بأبياته السابقة التي حملت عواطفه الصادقة، المفصحة عن هيام قلبه بها، وعذاب نفسه من هجرها، عذابٌ مبطّنٌ باشتياق عميق إلى لقائها، إنها العاطفة النابعة من قلب الرضي العاشق المخلص العفيف.

ب- الروائح التي تهبُّ من جهة المحبوب:

هناك عوامل محسوسة تؤدي دورها في إثارة وتنمية مشاعر الشوق والحنين عند الشاعر الشريف الرضي: كالروائح التي تهبُّ من جهة المحبوب، روائح طيبة لا تضلُّ طريقها إلى أنف الشاعر الذي يعصف به الحبُّ، وينجرف تجاه الحسيّة أحياناً، متمنياً أن يصيبه قليلٌ من اللذة، لعله يطفئ نار الوجد المضرمة، ويخمد ألق الشوق الذي حوله الحرمان والإحرام لهيباً لا يستطاب النظر إليه، ولنستمع إليه قائلاً:[1]

هبّت لنا من رياح الغور رائحة بعـــد الرّقـــاد عرفناهـــا بريّـــاك

ثـــمّ انثنينـــا إذا مـــا هزّنـــا طـــربٌ علـــى الرحـــال، تعللنـــا بـــذكراك

[1] ديوان الشريف الرضي، ج93/2.

هذه الروائح التي هبّت من منطقة الغور كانت سبباً رئيساً في إيقاظ مشاعر الشوق والحنين تجاه محبوبته، فجددت أحلام السعادة فيه، وأنعشتها، وأثارت في نفسه ذكريات حبٍّ لا تنسى. نراه يقول في حجازية أخرى[1]:

شممت بنجد شيحةً حاجزيةً فأمطرتها دمعي، وأفرشتها خدي

إنّ شوق الرضي وحنينه لا يثقل نفسه بالهم فحسب ، بل يستمطر دمعه.

3- أثر عاطفة الرضي على لغته الشعرية في حجازياته:

إنّ لعاطفة الرضي عظيم الأثر على لغته الشعرية، وسنقف في مبحثنا هذا على أثر العاطفة في ظاهرة التكرار بوصفه ظاهرةً لغويةً.

- **التكرار:**

يوظّف الرضي التكرار في حجازياته بوصفة ظاهرة لغوية تساعده في إجلاء مشاعره؛ لأنّ التكرار إحدى الظواهر الأسلوبية المهمة التي يُستند عليها لفهم النص الأدبي، "والتكرار لا يقوم فقط على مجرّد تكرار اللفظة في سياقها الشعري، إنما ما تتركه هذه اللفظة من أثر انفعالي في نفس المتلقي، وبذلك فإنه يعكس جانباً من الموقف النفسي والانفعالي، فكلّ تكرار يحمل دلالات نفسية، وانفعالية مختلفة تعرضها طبيعة السياق الشعري؛ ولأنّ التكرار إحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره"[2].

ولقد فطن الرضي إلى هذه الظاهرة فنجد في حجازياته تكرار الألفاظ والتراكيب والأساليب اللغوية، بشكل يعكس ذائقته ومقدرته الأدبية، ويترجم مشاعره الداخلية، مضيفاً

[1] المصدر السابق، ج431/1.

[2] العاطفة وأثرها على اللغة الشعرية في شعر الشريف الرضي، منيف أحمد حميدوش، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين، اللاذقية– سورية، 2008م، ص219.

بذلك التكرار هالة جمالية على نصوصه الحجازية، يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "الأصوات التي تتكرر في حشو البيت، مضافة إلى ما يتكرر في القافية، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية، متعددة النغم، مختلفة الألوان"[1]. "والمتبصر في شعر الشريف الرضي بشكل عام، وفي حجازياته بشكل خاص، يلحظ سمة التكرار لبعض المعاني والصور، إذ يكثر الشريف الرضي من استخدام صورة الالتفات، وهي صورة حركية مختلفة عن الصورة المألوفة للنظر، ففي الالتفات قلق مشوب بالفزع، أو المحاذاة، أو الاستحياء، بينما يكون النظر مطمئن الحالة مستقرها"[2].

ويجيءُ الالتفات لدى الشريف مرتبطاً بالشوق والحنين للماضي، ولقاء الأحباب، وممزوجاً بالتساؤل والدموع، حيث يقول:[3]

فلولا الشوق ما كثر التفاتي ولا زُمّتْ إلى طلل جمالي

وقد تتكرر لفظة الالتفات في القصيدة مرتين، لتوحي بآلام الشريف وحزنه، وهو سلاح الموجوع بألم الفراق، وبخاصة التلفّت غير المنقطع بالقلب، ذلك دليل آخر على الإخلاص وتمكّن الحب منه تمكناً لا فكاك لفؤاده منه، يقول في إحدى حجازياته:[4]

تلفّت حتّى لم يبنْ من بلادكم دخانٌ ولا من نارهنّ وقود

وإنّ التفات القلب من بعد طرفةٍ طوال الليالي نحوكم ليزيد

والشريف الرضي الذي تتلمذ منذ صغره على أيدي أبرع النحويين في عصره وظّف ظاهرة التكرار في شعره بطريقة خاصة؛ إذ ظهرت محاولاته في التكرار من رفضه

[1] موسيقا الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1988م، ص45.

[2] الشريف الرضي دراسات في ذاكرة الألفية (الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي)، عبد الإله الصائغ، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، د.ت، ص279.

[3] ديوان الشريف الرضي، ح153/2.

[4] المصدر السابق، ج432/1.

لـنمط التقليـد، وإعطائـه بعـداً تجديـدياً علـى المسـتوى الإنسـاني والاجتمـاعي؛ لـذلك كـان الشريف يكتب من فيض روحه ويستنطقها، من هنا كان شعره غريب الإدراك؛ لأنّ لغة الروح لغة كلّ زمان ومكان، وهذه اللغة تمثّلت في عباراته البسيطة، نراه لا يقتصر في تكراره على تكرار اللفظة فقط، بل يصل بتكراره إلى التكرار الأسلوبي، كأسلوب الاستفهام الذي يفصح شدّة شوقه، ورقة عاطفته وصدقها، ومن ذلك قوله في إحدى حجازياته:[1]

ألا هل إلى ظلّ الأثيل تخلّصٌ وهـــل لثنيـــات الغـــوير طلـــوع

وهل بليت خيمٌ على أيمن الحمى وزالـــت لنـــا بـــالأبرقين ربـــوع

وهـــل لليالينـــا الطـــوال تصـــرّمٌ وهـــل لليالينـــا القصـــار رجـــوع

تكررت أداة الاستفهام (هل) خمس مرات في الأبيات الثلاثة السابقة، هذا ما يكشف حيرة الشاعر وقلقه، وتكشف عن التوتر الانفعالي الذي أصابه بشكل متعاقب، وكذلك عن طبيعة البنية المكونة لهذا التساؤل، وكأنّ الشريف يصور ما في ذهنه من فِكَرٍ تتعلق بمصيره وطموحه الذي لم يلق صدىً، "ولا بدّ أن يُعتمدُ التكرار بعد الكلمة المتكررة، حتى لا يصبح التكرار مجرّد حشو، فالشاعر إذا كرّر عكس أهمية ما يكرره، مع الاهتمام بما بعده، حتى تتجدد العلاقات، وتثري الدلالات، وينمو البناء الشعري"[2].

لاحظنا فيما سبق أنّ للتكرار بوصفه ظاهرة لغوية عظيم الدور في كشف مشاعر الشاعر وأحاسيسه، وشاعرنا الشريف الرضي لم يغفل هذا الأمر، بل استغل دلالات هذه الظاهرة، ووظّفها في حجازياته خير توظيف، واستطاع بذلك التنفيس عمّا ينتاب ذاته من انفعالات، مطوّعاً لغته، مجيشاً ألفاظها وأساليبها في سبيل ذلك. وكما يقول الدكتور محمد النويهي: "حقاً إنّ قدرتنا نحن غير الشعراء على وصف العاطفة ضئيلة، لكنّ قدرة الشعراء

[1] المصدر السابق، ج657/1.

[2] الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، مدحت سعيد الجبار، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1984م، ص47.

عظيمة جداً، ولهذا بالضبط نقرأ شعرهم، حتى نزداد فهماً لعواطفنا الإنسانية، حين نرى تعبيرها على ألسنة من أتوا أقصى مقدرة إنسانية على التعبير بالألفاظ"[1].

وفي موضعٍ آخر نرى الشريف يكرر أداة النداء؛ إذ يكررها خمس مرّات في إحدى مقطوعاته الحجازية، وحضورها بهذه الكثافة يوحي بحجم التوجّع والتأوّه الذي يعاني منه، معاناةً تدفعه إلى الأنين، وذرف الدموع، ولنستمع إليه وهو القائل:[2]

أيا أثلاث القاع كم نضْجُ عَبرَةٍ لعيني، إذا مرّ المطيُّ بذي الأثل

ويا عقدات الرمل كم لي أنّةٌ إذا ما تذكرت الشقيق من الرمل

ويا ظُعُنَاتِ الحيّ يوم تحملوا عُقِرتِ، وأفنى الله نسلك من أبل

ويا ظبيات الجزع يسنَحْنَ غدْوَةً لقد طُلَّ من ترشُقْنَ بالأعينِ النُّجلِ

ويا بانة الوادي أدمعي في الهوى أبرُّ حيّاً، أم سقاك من الويل؟

أول ما يلفت النظر في تكرار النداء هو المنادى، فالشاعر يشخِّص ويسترسل في نجواه، مكرراً هذا الضرب من النداء، تكراراً متلاحقاً يقوي إحساسنا بحالته النفسية، ويكشف لنا عن كثافة المادة العاطفية التي يرزح تحت وطأتها، حتى لتكاد النفس تنوءُ بحملها، ولم يبق للشاعر سوى أسلوب النداء، يبوح من خلاله بأسراره وهمومه وآلامه، فيسكن وجدانه؛ لذلك جسّد كل هذا في تتابع الصفات التي وقعت بعد أسلوب النداء (أيا أثلاث القاع، يا عقدات الرمل، يا ظُعنات الحي، ويا ظبيات الجزع، يا بانة الوادي)،

[1] وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي، محمد النويهي، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1967م، ص200.

[2] ديوان الشريف الرضي، ج195/2.

ويمكن أن نفسّر هذا التكرار في أسلوب النداء عند الرضي بتداعي المعاني للصور المرئية في ذهنه.

4- أثر عاطفة الرضي على صورة الشعرية في حجازياته:

إنّ عواطف الرضي الشعرية والغزلية هي عواطف عفيفة وسامية، فالرضي العاشق المخلص لا يتبع القلب إلى غير حبيبه، وكثيراً ما كانت تعابيره العاطفية نابعة من روح صافية تعي ما هو الحب السامي، البعيد كل البعد عن الشهوات، وشعره نسيبٌ رقيق يركّز فيه على تصوير حالاته النفسية، ويعكس عفّته، وأصله الطيب، وما هذا إلا نتيجة فعلية لتربيته الدينية، ونسبه الطاهر، فغزله هو غزل الروح المعنوية، فإذا ما تكلّم عن لقاء المحبوبة سرعان ما يلجأ إلى حصن العفّة، وكأنّه يبرِّئُ نفسه من تهمةٍ، ربّما ستلصق به جراء لقائه بهذه المحبوبة، ويتجلّى ذلك بوضوح في قوله:[1]

بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً يلفنا الشوق من فرعٍ إلى قدم

وأمست الريح كالغيرى تجابنا على الكثيب فُضول الريط واللمم

وبيننا عفَّةٌ بايعتها بيدي على الوفاء بها والرعي للذّمم

رغم الشوقٌ الكبير الذي كلّل الشاعر من رأسه إلى قدمه، نراه يعفّ في ثوبٍ مغمّسٍ بالهوى والتقى، فالرضي عاشق يخاف أن يشي بحبّه، فيرى على الكثيب فضول

[1] ديوان الشريف الرضي، ج2/231-232.

الريب، ويرى الريح غيرى تجاذبهما، إلا أنه يبقى ثابتاً في حبّه العفيف، وما عواطفه السابقة إلا عواطف صادقة لمحبٍّ حقيقي لا يعيش إلا بالحب.

لقد طوّع الرضي صوره الشعرية خدمةً لعاطفته الصادقة السامية، فجاءت هذه الصور وليدة خياله الخصب الطريف، "فالخيال هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة"[1]، والخيال من أهم عناصر النص الأدبي، ولقد فطن الرضي منذ بداية مسيرته الشعرية إلى أهميته، فرسم لنا في تغزله صوراً فنيّةً عبّرت عن حبّه الطاهر، وعكست عاطفته الرقيقة تجاه محبوبته، ومن ذلك قوله: (يلفنا الشوق)، فهل يلفّ جسد الشاعر شوقٌ أم ثوبٌ؟ لقد فضحت هذه اللفظة شدّة شوق الشاعر، وأدت الوظيفة الجمالية المنوطة بها نتيجة قدرتها التعبيرية العالية، "ومن صفات المفردة الشعرية ذات الصلة بعاطفة الشاعر، الخفة والسهولة والرشاقة"[2]. لنتأمل في المقطوعة الشعرية السابقة تلك الصورة الشعرية: (أمست الريح كالغيرى تجاذبنا) هذه الريح امرأة غيرى، تغار من وصال الشاعر مع محبوبته، فتجاذبهما، وتداعب ثيابهما وشعرهما، بدافع الغيرة والحنان، وهو الوفيُّ المخلص، فمحبوبته واحدة في كلّ الأحوال، وهو الذي يشتاق إليها ويعاني الألم والحزن للقائها. إنّ الأبيات السابقة، وغيرها من أبيات حجازيات الشريف الرضي، تمثل براعته ومقدرته في بيان إحساسه ومشاعره بطريقة تثير مشاعر القارئ، كما تدلّ على قوة عاطفته وصدقها. فالشاعر مهما علا شأنه لا يستطيع أن يرتقي بقصائده إلى هذا المستوى من الكمال والجمال والقوة والروعة، إذا كان ذا عاطفة مزيّفة غير صادقة.

[1] مدارس النقد الأدبي الحديث، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص53.

[2] العاطفة والإبداع الشعري، د. عيسى علي العاكوب، ص189-190.

الاستنتاجات والتوصيات:

1- لم يكتفِ الشريف الرضي بإطلاق العنان لأفكاره ومشاعره، إنما سعى إلى توظيف عاطفته توظيفاً صحيحاً؛ لأنه يريدها أن تسهم إسهاماً إيجابياً في رسم صورة واضحةً عن ذاته الداخلية وما ينتابها، فتصبّ في اتجاهها المرسوم، عندها لا تكون هذه العاطفة منعزلة عن أفكاره، ولا عن الاتجاه المرسوم لها في حجازياته.

2- لقد درج الناس على قراءة شعر الشريف الرضي؛ لأنهم وجدوا فيه تصويراً لعواطفهم، وانفعالاتهم التي عجزوا في التعبير عنها، كما درج الشعراء على قراءة عاطفته؛ لأنها عاطفة صادقة، فتجربته الشعرية التي عاشها جعلت من هذه العاطفة موهبةً تحتذى وتُقرأ.

3- إنّ نفس الرضي الأبية الطامحة، وقلبه الرقيق أوجدا عاطفةً دافقةً يرسلها في أبياته الشعرية، مما يقويها ويجعلها راسخةً خالدةً، وتأخذ عاطفته مدىً قوياً في التأثير في نفوس المتلقين.

4- لعاطفة الرضي دور كبير في دفع موهبته الشعرية لتخرج ما في جعبتها من سحر البيان، ذلك دليل على شاعريةٍ قلّ مثيلها، وشعور صادق.

5- إنّ حياة الرضي على قصرها كانت غنية بالعواطف، مليئة بالأحاسيس، حافلة بهموم القلب، يمارس الرضي فيها الجوانب الغرامية والدوافع النفسية بعتوٍّ بالغ.

6- لقد عبّرت حجازيات الرضي ع مشاعره أصدق تعبير، ففيها تمثيل لوجدان صاحبها، وتعبير عن أمانيه وأشواقه، وخفقات فؤاده، وتأتي في انسجامٍ باهرٍ معبّرٍ عن حبه الصادق، وعن نضج عواطفه وأحاسيسه.

ثبت المصادر والمراجع

1- الأسس الجمالية في النقد العربي، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1974م .

2- أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت، 1959م .

3- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيّد جاسم، دار الأندلس، بيروت – لبنان، د.ت .

4- البحث الأدبي بين النظر والتطبيق، علي علي مصطفى صبح، دار إحياء الكتب العربية، د.ت .

5- التحرير الأدبي، د. حسين علي محمد حسين، مكتبة العبيكان، ط5، 1425هـ – 2004م .

6- ديوان الشريف الرضي، شرحه وعلّق عليه وقدّم له: الدكتور محمود مصطفى حلاوة، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1419،1هـ – 1999م .

7- الشريف الرضي دراسات في ذاكرة الألفية (الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي)، عبد الإله الصائغ، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، د.ت .

8- شعر الشريف الرضي ومنطلقاته الفكرية، عبد اللطيف عمران، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2000م .

9- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري ت 276هـ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1377هـ - 1958م .

10- الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، مدحت سعيد الجبار، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1984م .

11- العاطفة والإبداع الشعري، د. عيسى علي العاكوب، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سورية، 2002م .

12- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني ت463هـ، قدّم له وشرحه: صلاح الدين الهواري، وهدى عودة، منشورات دار ومكبة الهلال، بيروت، 1417هـ - 1996م .

13- مدارس النقد الأدبي الحديث، د. محمد عبد المنعم خفاجي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1416هـ - 1995م .

14- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العربية، بيروت . لبنان، ط1، 1412هـ . 1992م .

15- موسيقا الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1988م .

16- نماذج في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط3، 1969م .

17- وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي، محمد النويهي، مطبعة الرسالة، القاهرة، 1967م .

الرسائل الجامعية:

1- العاطفة وأثرها على اللغة الشعرية في شعر الشريف الرضي، منيف أحمد حميدوش، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين، اللاذقية- سورية، 2008م.